ماذا يستفيد الإسلام من نقص العقل والدين؟!

ضمن الحوار المتطاول الذي يدور منذ بضعة أسابيع في جرائدنا المحلية حول حديث (إنكن ناقصات عقل ودين) كتب الأستاذ إياد القطان في جريدة الرأي ليوم ١٩٨٩/٩/١١ دفاعا عن الإسلام(؟) يتساءل فيه عن (ماذا يستفيد الإسلام من نقص العقل والدين؟) ثم يفسر ذلك الحديث بعد أن يتعرض بشكل مجمل إلى السنة النبوية وكيف ينبغي أن ننظر إلى حجيتها. وهو بذلك يخرج من إطار البحث في نص حديثي محدد إلى إطار أوسع وأعمق وهو البحث في مصادر هذا الدين عقيدة وشريعة أي أنه يخرج من الفروع إلى الأصول وهكذا تصبح المسألة أخطر وأكثر حساسية. ولا شك أن وضع مسألة فرعية ضمن إطارها الأصولي زيادة على أنه سيغني عن بحث العديد من أمثالها من القضايا الفرعية التي ترجع إلى أصل واحد هو تصحيح للمنهج وفصل للخطاب. والقضية المطروحة إذن هي السنة النبوية الشريفة كأصل من أصول العقيدة والشريعة وهي بهذا الاعتبار أخطر قضية في تاريخ الإسلام على الإطلاق. وسنحاول في هذه العجالة أن نبين لماذا كانت كذلك من خلال تقريرات أصولية قرآنية لا يرقى إليها الشك ولا يختلف فيها اثنان فنقول والله الموفق:

الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للإنسان **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** [آل عمران: ١٩] وهو الخضوع لشريعة الله عز وجل الناتج عن الإيمان بأنها من عند الله خالق الإنسان الذي يشرع له ما يعلم أنه يصلح له **﴿ومن أحسن من الله حكما﴾** [المائدة: ٥٠] وقد أرسل تعالى رسله تترى إلى الناس لبيان شريعته **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾** [النساء: ٦٤]. **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾** [إبراهيم: ٤]. ومحمد رسول الله ﷺ هو

خاتم النبيين ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ [الأحزاب: ٤٠] وشريعته خاتمة الشرائع وهي ناسخة لكل ما قبلها مهيمنة عليه ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**﴾ [المائدة: ٤٨] ومكتملة اكتمالا ذاتيا تاما ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة: ٣]، وعليه فالرسالة المحمدية هي خطاب الله الأخير للإنسان حتى يرث الله الأرض وما عليها فهي دائمة دوام الإنسان وهٰذا يقتضي توفر حجيتها الدائمة والذاتية ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [النساء: ١٦٥]، وهٰذا يقتضي بدوره حفظ نصوصها حفظا مطلقا ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩] ويقتضي كذلك وجود أصول ثابتة لفهم هٰذه النصوص بحيث لا يمكن الاختلاف في فهمها عند النظر المنصف النزيه إليها لأنه لو أمكن وجود الخلاف لانتفت الحجية. والنصوص الإسلامية وحجيتها تثبت في أصول ثلاثة وهي: القرآن والسنة واللغة العربية أي في النصوص الشرعية واللغة التي وصلت بها هٰذه النصوص إلى البشرية. وحجية الرسالة المحمدية على البشر تقتضي حفظ هٰذه الأصول الثلاثة إلى يوم الدين. وحجية القرآن الكريم ذاتية قائمة على إعجازه ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم.. وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله.. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار**﴾ [البقرة: ٢٤] وحجية السنة مستمدة من القرآن ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤]. وحجية اللغة العربية لفهم القرآن مستمدة كذلك من القرآن ﴿**قرآنا عربيا غير ذي عوج**﴾ [الزمر: ٢٨].

وقد تعرضت هٰذه الأصول الثلاثة لتشكيك أعداء الإسلام قديما وحديثا وهٰذا أمر طبيعي في تاريخ البشرية فمن الناس من يؤمن ومن الناس من يكفر ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾ [هود: ١١٨] وهو مناط الابتلاء والجهاد، فإنكار حجية الرسالة أو أحد أصولها هو وسيلة الانفلات من شرع الله. وشريعة الله لا تحابي أحدا ولا

تنظر إلى هوى أحد فكل من تقف الرسالة الألهيه في طريق طغيانه (أي تجاوزه لحده المساوي لحدود غيره من الناس) فإنه سيكفر بها أي يتمرد عليها وتبريرا لموقفه سيشكك فيها وفي أصولها. ولقد كان الهجوم على أصول الإسلام عنيفا ومتطاولا ومكافئا في قوته وزخمه للهجوم المسلح على المسلمين وبلادهم وذلك بما يتناسب مع قيمة هذه الرسالة التي هي خطاب الله الأخير للإنسان أي يتناسب مع الصراع الذي أراده الله عز وجل بين الحق والباطل إلى قيام الساعة **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** [البقرة: ٢٥١].

ولقد هوجم القرآن الكريم، هاجمه مشركو قريش قديما فقالوا إنه سحر يفرق بين المرء وزوجه وهاجمه المستشرقون حديثا فشككوا في مؤلفه (كذا!) وفي إعجازه اللغوي وما إلى ذلك ولكن كل ذلك باء بالفشل وفي كل يوم يدخل بعض من كبار مفكري العالم في الإسلام بمجرد قراءة نزيهة لكتاب الله عز وجل بل لترجمة لمعانيه.. ولقد هوجمت اللغة العربية، هاجمتها الشعوبية قديما وشكك فيها كثير من أبنائها حديثا فمن مطالب إلى استبدالها باللغة العامية أو استبدال كتابتها بالحروف اللاتينية إلى مشكك بقدرتها على استيعاب لغة العلوم الحديثة ولكن كل ذلك باء بالفشل وتوجد اليوم جامعات في بلادنا تدرس العلوم والطب والهندسة باللغة العربية رغم أنف أتباع الغرب ومقلديه.

ولقد كانت الحملة على السنة النبوية أشرس الحملات على الإطلاق وذلك أولاً لجهل العوام من المسلمين لأمور دينهم واستغلال أعداء الإسلام لهذا الجهل. فالذين هاجموا السنة ـ بعد فشلهم في الهجوم على القرآن ـ يقولون: نعم القرآن هو نص الرسالة المحفوظ ولكن السنة ـ في زعمهم ـ ليست كذلك فأهميتها ثانوية ونصوصها ليست مقدسة وروايتها مشكوك فيها. وهكذا كان الهجوم على السنة من حيث صحة ورودها (أو الإسناد) ومن حيث حجيتها ومن حيث نصوصها (أي متونها) جملة وتفصيلا. واشتدت الهجمة على السنة ثانيا لأنها النص الشرعي الشارح للقرآن الكريم المكمل لتشريعاته كما سيلي.

فأما التشكيك في روايات السنة فقد طنطن به المستشرقون وتلاميذهم طويلا جهلا منهم وتجاهلا واستغلالا لجهل المسلمين بتاريخ رواية السنة وقد

تصدى علماؤنا الأفاضل على مدار قرن من الزمان لبيان هٰذا التاريخ والرد على المستشرقين بحيث لم نعد نسمع اليوم من يشكك ـ جادا ـ في رواية السنة وأصبح من المسلم به أن السنة النبوية هي أوثق وأصح نص حمله لنا التاريخ الإنساني بعد نص القرآن الكريم.

وأما التهجم على نصوص السنة أو متون الأحاديث فالرد عليه متضمن في الرد على التشكيك في حجية السنة، فالتهجم على نص حديثي واحد هو تهجم على كل الحديث لأنه يعامل السنة لا كنص شرعي أساسي تلقى شرعيته من الله عز وجل وهو حجة على الناس ولكن كنص بشري تاريخي يمكن القدح في مضمونه كأي نص بشري تاريخي. فإثبات حجية السنة جملة يقتضي بالنتيجة قطع الطريق أمام كل محاولة للنيل من أحد نصوصها الثابتة.

وفي الحديث عن حجية السنة سأورد هنا نصوصا للإمام الشافعي رضي الله عنه في كتابه (الرسالة في أصول الفقه) وهي أقدم النصوص الأصولية المجموعة في تاريخ الإسلام وقد تلقتها الأمة كلها بالقبول كما وأنها ـ كما سنرى ـ تستند مباشرة إلى النصوص القرآنية. يقول الإمام الشافعي:

«باب بيان فرض الله في كتابه اتباع سنة نبيه: وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان به فقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ [النساء: ١٧١]. . ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله فقال تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ [النساء: ١١٣] فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله، لأن القرآن ذكر وأتبعته الحكمة فلم يجز والله أعلم أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله. وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد. .» ص ٤٥ ـ مختصرا ـ. ويقول الإمام الشافعي:

«باب ما أبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباع ما أوحي إليه وما شهد له به من اتباع ما أمر به! . . وشهد له ـ جل ثناؤه ـ باستمساكه بما أمره به والهدى في نفسه وهداية من اتبعه فقال: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله**﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة**﴾ [النساء: ١١٣] فأبان الله أن قد فرض على نبيه اتباع أمره وشهد له بالبلاغ عنه. . وفي شهادته له بأنه يهدي إلى صراط مستقيم والشهادة بتأدية رسالته ما أقام الله به الحجة على خلقه بالتسليم لحكم رسول الله واتباع أمره. وما سنَّ رسول الله فيما ليس لله فيه حكم فبحكم الله سنه. وقد سن رسول الله مع كتاب الله وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب. وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه وجعل في اتباعه طاعته وفي العنود عن اتباعه معصيته التي لم يعذر بها خلقا» ص ٥١ ـ مختصرا ـ.

ويقول الإمام الشافعي في باب ابتداء الناسخ والمنسوخ:

(ولا يحتمل أن تكون لرسول الله سنة مأثورة قد نسخت ولا تؤثر السنة التي نسختها وكيف يحتمل أن يؤثر ما وضع فرضه ويترك ما يلزم فرضه ولو جاز هٰذا خرجت عامة السنن من أيدي الناس بأن يقولوا: لعلها منسوخة) ص ٥٧ ـ مختصرا ـ.

وعليه فالنصوص القرآنية التي أوردها الإمام الشافعي رحمه الله تقرر جملة مسائل أهمها:

أولاً: السنة كنص عقيدي وتشريعي نص أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ولا الطعن به في هٰذا الدين.

ثانيا: أن الرسول ﷺ مبلغ عن ربه سواء في النص المتعبد بتلاوته والموحى به لفظا ومعنى وهو القرآن أو في النص غير المتعبد بتلاوته والموحى به بالمعنى دون اللفظ وهو السنة.

ثالثا: إن كل ما أمر الرسول عليه السلام بتبليغه قد بلغه كما أمر وأن كل

نص ناسخ أو معدل بتخصيص أو تقييد لا بد وأن يكون قد وصلنا مع المنسوخ أو المعدل لتتم حجية الله على البشر ويفهم مراده منهم عز وجل.

ومجموع هٰذه التقارير هام في مناقشة الاستنتاج الذي وصل إليه الأستاذ القطان تحت العنوان الاستفهامي (إن هو إلا وحي يوحى؟!!) في مقاله المذكور. حيث يرى أن الموحى به هو «النص القرآني والأحكام الشرعية» فقط. والواقع أن تنظير الأستاذ القطان ليس في غاية الدقة فهو لم يبين لنا ما هو الذي ليس موحى به في السنة الشريفة، إلا إذا كان ذلك ما ذكره من بعد في نفس الفقرة من «طقوس وحركات وشكليات وجزئيات تافهة» (والنص للأستاذ القطان) ولا أدري هل يدخل الحديث موضوع النقاش (. . ناقصات عقل ودين) ضمن هٰذه الطقوس والحركات والشكليات. . ثم إن ما استشهد به الأستاذ القطان من تصحيح الوحي لاجتهاد الرسول ﷺ في قصة العبس في وجه الأعمى والإذن للمتهربين من الجهاد وإطلاق الأسرى بالفداء أو الأفعال التي أمر بها رسول الله أو كاد ثم رجع عنها كتأبير النخل والنهي عن الغيلة، كل ذلك أفعال عملية تترتب عليها أحكام شرعية، وقد قال الأستاذ القطان نفسه أن الموحى به هو النص القرآني والأحكام الشرعية، والخلاصة أن الأستاذ القطان يحاول أن يفصل بين أمور الفصل بينها غير متضح في نفسه هو شخصياً! ولو أن الأستاذ القطان كلّف نفسه مشقه مراجعة المسائل التي تعتمل في نفسه في مظانها في كتب الشريعة أو استفسر عنها أهل الذكر **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** [النحل: ٤٣] لوجد أن علماء الإسلام لم يتركوا شاردة ولا واردة في مسائل هٰذا الدين الأصولية إلا بحثوها ولكفانا مؤونة تذكيره ولعلم أنه لم يأت بجديد ولكننا نرجو أن تعم الفائدة جمهور القراء.

ولتفصيل ما ليس تشريعا من أقوال الرسول وأفعاله ننقل هنا ما لخصه الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ـ رحمه الله ـ في كتابه أصول الفقه، يقول:

«ما صدر عن رسول الله ﷺ من أقوال وأفعال إنما يكون حجة على المسلمين واجبا اتباعه إذا صدر عنه بوصف أنه رسول الله وكان مقصودا به

التشريع العام والاقتداء وذلك أن رسول الله ﷺ إنسان كسائر الناس ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي**﴾ [الكهف: ١١٠]فما صدر عنه بمقتضى طبيعته الإنسانية من قيام وقعود ومشي ونوم وأكل وشرب فليس تشريعا لأن هٰذا ليس مصدره رسالته ولكن مصدره إنسانيته لكن إذا صدر منه فعل إنساني ودل دليل على أن المقصود من فعله الاقتداء به كان تشريعا بهذا الدليل وما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب في الشؤون الدنيوية من اتجار أو زراعة أو تنظيم جيش أو وصف دواء لمرض أو أمثال هٰذا فليس تشريعا أيضا لأنه ليس صادرا عن رسالته وإنما هو صادر عن خبرته الدنيوية وتقديره الشخصي ـ ويسوق هنا قصة التأبير ـ وما صدر عن رسول الله ودل الدليل الشرعي على أنه خاص به فليس تشريعا عاما كتزوجه بأكثر من أربع . . » ص ٤٣ ـ مختصرا ـ .

هناك وجه آخر لاستنتاج الأستاذ القطان المذكور، فهو يرى أن الموحى به من السنة هو الأحكام الشرعية فقط، ولو فهمت هٰذه العبارة على مقتضاها ـ على الرغم من الالتباس الفكري من الأستاذ القطان الذي يجعلنا لا نقطع بفهمنا لمراده من كلامه ـ لاقتضى أن السنة تفيد العمل ولا تفيد العلم في اصطلاح الأصوليين ـ وهٰذا الرأي أيضا لا يصح فالسنة النبوية تفيد العلم والعمل معا. يقول الإمام الطحاوي: وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق (شرح الطحاوية ـ تحقيق أحمد شاكر ص ٢٥٦) ويقول الإمام الشاطبي: (كل ما أخبر به رسول الله ﷺ من خبر فهو كما أخبر وهو حق وصدق سواء انبنى عليه في التكليف حكم أم لا . . ويبنى عليه في الاعتقادات والأعمال جميعا لأنه ﷺ مؤيد بالعصمة وما ينطق عن الهوى (الموافقات) ج٣ ص٥٢) وقد استشهدنا بهذين الإمامين لأن نصوص الإمام الشافعي في الرسالة في هٰذا الموضوع طويلة ومعقده فليرجع إليها من أحب في باب العلم وباب خبر الواحد (ص ١٥٤ ـ ١٦٠) أما الأدلة على حجية السنة العلمية فهي نفس الأدلة التي ذكرنا آنفا عن السنة العملية حيث لم تختص بها.

إذا اتضح هٰذا مختصرا نقول بأن حديث نقص العقل والدين لا يعدو أن يكون حديثا صحيحا ورد في كتب السنة النبوية بأسانيد صحيحة فهو جزء من

السنة النبوية وهي الأصل الثاني في هٰذه الرسالة المحمدية التي تعبدنا الله عز وجل بها ويجب أن نقف أمامه بهذا الاعتبار، وتعلمنا الصحابية الجليلة كيف نحترم النص النبوي فلا تعترض على رسول الله ولكن تسأله ما معنى نقص العلم والدين لأنها تريد التعلم ممن **﴿ما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾** [النجم: ٣، ٤] فيفسره رسول الله ﷺ بما لا يقدح مطلقا في جنس النساء وهو أن المرأة تحيض ـ مسلمة كانت أم غير مسلمة ـ فيرتفع عنها تكليفا الصلاة والصيام وإن شهادتها في القضاء بنصف شهادة الرجل وهٰذا تقرير لنص قرآني [البقرة: ٢٨٢] وغلبة الانفعال العاطفي عند المرأة مقررة في كتب علم النفس الحديثة، وتقلباتها النفسية بحسب وضعها من الدورة الشهرية أو الحمل والرضاع مقررة في كتب الطب والفسيولوجيا الحديثة وتجري عليها دراسات كثيرة في كتب الطب والفسيولوجيا الحديثة وتجري عليها دراسات كثيرة في علوم النفس والغدد والأعصاب، واختلاف الرجل عن المرأة في الوظيفة التناسلية أمر طبيعي مقرر بنت عليه معظم المجتمعات البشرية السوية دورا للمرأة في المنزل ودورا للرجل في السوق، يختلفان ولكن ليس أحدهما بأعلى من الآخر، فكفاءة المرأة في السوق أقل من كفاءة الرجل وكفاءته في المنزل أقل من كفاءتها ولعل تلك هي الحكمة في أن شهادتها نصف شهادته **﴿أن تضل احداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾** [البقرة: ٢٨٢]. وعلى كل فالنص القرآني لا يأتيه بالباطل من بين يديه ولا من خلفه وذلك يكفي والقرآن يسأل **﴿أأنتم أعلم أم الله﴾**[البقرة: ١٤٠] ويقرر **﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** [البقرة: ٢١٦].

نشرت في جريدة الرأي ٨٩/٩/٣٠